

العالم واللغة والشاعر (١)

بقلم إروين إدمان
ترجمة إسماعيل الملاك

انغام واصوات .

ثم ان الالفاظ ليست محض تموجات صوتية . ان لها تسلا لا شعورية تتلون وتحدد بكل ملابسات الظروف التي احاطت بالانسان حين تعلمها ، كما ترتبط بحالة الانسان حين يستعملها . ولن تكون اللفة ابدا علما جبريا صرفا الا حين توضح المقاصد العلمية البحتة . ان الالفاظ ليست عربيات حيادية لمعان حيادية ، ذلك انها تعبر عن الاشياء الجذابة ، او الامور المنفرة مثل : البيت او الموت اما الالفاظ التي قد تكون معانيها محايدة في ذاتها فانها لا بد ان تكون مفترنة - في الوقت ذاته - بالآلاف الارتباطات الذهنية غير الواعية بشكل منفر او ملذ .

واذ كان للالفاظ هذا الوضع المانع الخاص اعني كونها اصواتا موسيقية ورموزا منطقية وانفعالات عاطفية في الوقت عينه ، فان باستطاعتنا ان نعد النثر فنا مولدا . وهو - في اغلب الاحيان - يهمل - فيما عدا الكتابة الفنية المنمقة - امكاناته الموسيقية التي يستفيد منها الشعر على وجه التخصيص ان وظيفة النثر الخاصة تتحدد بكونه يستطيع استخدام امكانات اللفة التمثيلية والتوصيلية . ذلك انه يستطيع ان يسرد حكاية ، ان يشرح فكرة ، ان يوضح موقفا ، ان يصف موضعا ، ان يصور شخصية ، ان يناقش موضوعا . انه يؤيد ويلتمس ويقنع ويسرد ويحث . وفي امكانه ان يعبر عن مجموع التجربة الانسانية ، اذ لا يقع تحت تصرفه المعنى الظاهر الدقيق للكلمة حسب ، وانما مجموع تناغماتها وابعاداتها . وهو - بعد ذلك - يستطيع ان يستمر من اخيه فن الشعر ، التأثيرات الموسيقية ايضا واذا يملك فن النثر هذا المجال الواسع لتوصيل المعاني فانه لا يكتفي بان يظل محض وسيلة لغوية ، بل يصيح اداة عرضية لتأليف خيالي ، او اسداع روائي . ان حقله الرئيسي في ايامنا العاصرة هو عالم الرواية الذي سنعرض له في ختام هذا البحث .

تزداد اهمية الاداة اللغوية وتتضح في فن الشعر ، حيث لا يمكن للشاعر ، ولا لسامعيه ولا لقارئه ، ان ينسى اللفة ابدا . ان الشاعر - كما يقول سانتاينا Santayna في مكان ما - هو - اساسا - صانع للالفاظ . انه يأسر الباب السامعين بالخصائص الموسيقية للكلمات . ولهذا فاننا نعتقد احيانا ان للشاعر الايطالي امتيازا خاصا ينفرد به ، اذ كيف لا يكون المرء شاعرا في لفة لا يستطيع الناطق بها ان يسأل عن الوقت ، او يطلب وجبة طعام ، الا ينبع متدفق من الحروف المتحركة اللينة . وهناك ابيات لشيكسبير يذكرها الانسان لمجرد كون

الفنان يستخدم دائما مادة ما ، انه يبني بالحجر او اللون او الكلمات . لكن فن الكلام - لا سيما حين يستخدمه الشاعر - هو احد اشد المعضلات غرابة وتعقيدا في جميع نظريات الفن . ان اللفة في احد وجوهها اداة انسانية عملية جدا ، لانها الوسيلة التي لا بد منها للتفاهم بين الناس في شؤونهم المادية اليومية . ومع ذلك فاننا لو فكرنا في اللفة دون النظر في مدلولاتها او معطياتها العملية والمنطقية لوجدناها ادق وسائط الاتصال وامنتها . انها هفافة ونابضة بالحياة مشتمل الموسيقى . والشاعر ملزم بان يبني بالكلمات ما يقوم اللون والخط لدى الرسام بابرازه وتثبيتته . وعلى هذا فمن الممكن ان نعتبر الادب كله - وبصورة خاصة الشعر - فنا مولدا مختلطا . فهو من ناحية لحن موسيقي تحدد تأثيراته بانغامه الخاصة . لحن يتقيد بالاصوات المتجسدة في الفاظ معينة وهو من ناحية اخرى صورة من صور التفاهم القائم على مؤثرات موسيقية قوية . وعلى هذا فان الشعر شكل تخيلي وعرضي ومؤثر من اشكال التفاهم والاتصال بين الناس .

ان هاتين النزعتين في الشعر ، اعني اتجاهه الى ان يكون مجرد فن صوتي خالص ، او فن اجتماعي محض ، انما تعكسان ازدواجية اللفة ، وتشعب مصادر الادب . فاللفة تحتفظ بامكانات منطقيية وموسيقية في آن واحد . وعلى ذلك فقد قدر للادب من البداية ان يتشعب الى فرعين احدهما الشعر والثاني النثر . ولو تحدثنا بصورة مثالية فان على النثر ، كي يحقق بشكل مطلق وظيفته الخاصة ، ان يتحول الى ضرب من اللاسلكي او الجبر . وما عليه الا ان يكون مجرد ناقل صريح لما اريد له ان ينقل من معان ومقاصد . اي ان كماله يتجسد في اللفة العلمية الصارمة . وهذه - في الواقع - لا صلة لها على الاطلاق بالفن .

لكن للالفاظ وجهين يجعلان من النثر اداة فنية - وان كانت اداة خداعة . فهما بدلنا من جهد واحكمنا عزل الكلمات عن اي شيء سوى معناها المجرد الاصلي ، فانها تظل مع كل ذلك محتفظة بطابعها التناغمي الحسي ، وتبقى مجرد تموجات واصوات حتى الصيغة الجبرية تملك ايقاعا لا يمكن اغفاله . بل ان نثر المختصرات الفلسفية يظل مطبوعا بنبيرات لفته المتميزة الخاصة . فنثر ديكارت يعكس تناغم اللفة الفرنسية ، وقراءتنا لبرجسون Bergson ممتعة لما في كلامه من

(١) من كتاب : Arts and the Man. By Irwin Edman
Published by The New American Library New York

The World is too much with us late and soon.

ان لغة النثر باعتبارها فكرة علمية . انها تخبرنا بان صفت الاشياء والاحداث المختلفة سرعان ما يفسد نشوتنا البدائية بالعالم الطسري الذي يكتنفنا عند مجيئنا الى الدنيا . لكن جوهر القصيدة وما يمكن ان يدعي حياتها ، لا يمكن في عاقبتها التي عبر عنها بهذا الشكل ، ولا في مقاطعها المتفرقة التي تم جمعها ، انه الصلة العميقة التي تصل ما بين مزاج الشاعر او حلمه ، وهو ما يسمى برؤياه الشاملة ، وبين وعينا الذي تجلت فيه تلك الرؤيا . انها رؤى الشاعر وخبرائسه وانفعالاته التي تمثلت داخل شخصيته فتحوّلت لا الى محض قصيدة مسطورة على الورق وانما الى نظام كامل خالد في عالم الابدية . والان فان ذلك التأثير الشامل النافذ الذي يحفر للاشياء في نفوسنا انطباعات خالدة حية مثالية ، هو الذي اطلقنا عليه اسم : حلم الشاعر . ثم ان ايصال ذلك الحلم هو مهمة الشاعر الاساسية . وهذه المهمة لا تتحقق الا عن طريق الوزن

وتستعمل كلمة (تخديري) في وصف الشعر احيانا ، كما اننا في احيان اخرى نتحدث عن (سحر الشعر) . لكن الغريب ان هاتين الكلمتين متضادتان . فقد يقال ان السحر يكمن في العبادة التي تهز النفس ، وفي عذوبتها التي لا يمكن وصفها ، اما (التخدير) فيظهر في ذلك الانتباه القسري او الاستغزاز العاطفي الذي يحدث لدينا بتأثير الاوزان . ان الوزن بولد حالة نفسية معينة ، فتتدفق المشاعر مع مجراه . ذلك هو احد الاسباب التي تهيء للقصيدة ان تترك في انفسنا اثرا تعجز عن تقدير مداه البعيد العظيم . فلقد شاركنا لفترة قصيرة ، في ذلك الحلم المنظم ، الذي هو القصيدة . ان دقات ايفاعاتها تواكب خفقات قلوبنا . وفي الحقيقة فان كل من تهيأ له ان ينظم شعرا ، يعلم ان اية قصيدة انما تبدأ اولاً في الدماغ كضرب من الايقاع غير المصحوب بأي معنى واضح . وكثير من القصائد في تاريخ الادب الانجليزي بدأت على شكل لحن استمر يرن في خيال الشاعر ، وبالتالي راح شكله يتحدد بالكلمات والمعاني . وكل مندوق للشعر يعلم ان ما يحبه ويهز اعماقه انما هو انسياب التفاعلات في نظامها العروضي الجميل . وقد يكون الوزن عادياً كما في تلك الابيات التي لازمت ذهن مارك توين Mark Twain لفترة من الزمن ، وهي تبدأ هكذا :
A blue trip slip for a three cent, fare.

وقد يتصف بكل ذلك التناقض الجميل الذي نعرفه في شعور ملتون المرسل . لكن الطرب والاهتزاز يزولان ويغيبان حينما يهمل ركن الوزن . فهما بلغت فخامة الالفاظ ، ومهما احسن اختيارها ، فانها لن ترقص في فؤاد القارئ ، وتصبح اناء تلك التجربة حياته كلها ، ما لم تمتلك (تخديرية) الوزن .

ان صفات الرخامة والايقاعية وشدة التأثير التي يشرف بها الوزن ليست في حد ذاتها المسؤولة عن قوة مفعول الشعر ، وشده اسره . ولو كان الشعر مجرد مقاطع والفاظ منفمة لتحول الى موسيقى تقبدها الاصوات والتركيب الخاصة باللغة . وعندئذ يخسر ذلك التوافق المركب المنسجم الذي تنفرد به الموسيقى . والشعر قد يكون - كما تمنى له نفر من الشعراء - محض موسيقى ، لكن هذه الموسيقى - لو قورنت بالموسيقى الحقيقية ستكون شديدة الضعف . ولنا في حاجة الى شرح مطول لعرف ان الشعر انما يتألف من الالفاظ ، وان الالفاظ ليست مجرد اصوات . وانما هي كلام ايضاً . وان مغزى الكلمات لا يمكن اغفاله ابداً . ولو فعل شاعر ذلك ، واهمل استخدام الصفة الكلامية للالفاظ لضبع واحداً من اهم اركان فنه .

والان فان لكل كلمة دلالتين : احدهما المنطقية والثانية النفسية . وعلى هذه الازدواجية يتوقف فن الشاعر الى حد ما . لكن ما يهم الشاعر هو ظلال الالفاظ ، ايعادها التي يحرض العالم على تجاهلها . وان اهتمام الشاعر ينصب على شدة اسر الالفاظ لا على مدى صدقها .

التتمة على الصفحة - ٨٦ -

مقاطعها تتساب بملوحة وتكاد تلوب في فمه . ولا يتوانى شعراء من مستوى سوينبرن Swinburne ، الذي تفتنه التوججات الايقاعية لاصوات الالفاظ ، عن كتابة هديان من الكلام لجرد تلذهم بالتتابع النفسي البديع الذي يولده ذلك الهديان . وهكذا صار بالامكان ان ندخل في باب الشعر اي بناء صوتي محض ، قائم على حروف ساكنة ومتحركة ، قد اختلفت بمهارة وتأنق ، لكنها خالية من اي معنى ، وكانها زخارف قماش شرقي . وهناك شعراء ومدقون للشعر تتميز اذانهم بحساسية خارقة ، فهؤلاء يهتزون لنغم الصوت تماما مثلما يفتتن بصر الرسام بلون ورقة او بحيرة .

لكن وظيفة الشاعر لا تقتصر - كما هو واضح - على صياغة الالفاظ - فليس التنسيق البارع للحروف الصامتة والحركات هو كل جوهر الشعر ، بل انه ليس كل حقيقة الجانب الحسي من الشعر . ذلك ان التشابه بين اللغة والموسيقى ، لا يقتصر على مجرد كون مقاطع اللغة ، مماثلة لتدرجات الفواصل الموسيقية . فكما ان الفواصل الموسيقية المنفردة ليست هي كل الموسيقى ، فكذلك لا يمكن ان نعد الشعر ، مجرد مقاطع متفرقة مهما بلغ من عذوبتها او فخامتها . ان للمسوت البشري نبضات ايقاعية لا يمكن اغفالها ، بل ان اللغة كلها ايقاعية بشكل لا مفر منه . وهذه الايقاعية اللازمة وتلك المقاطع المنفردة هما اللذان - يستخدمهما الشاعر ضمن المصادر الطبيعية لفنه .

يمكن تعريف (الوزن) الشعري بانه الاداة المخصصة للتخدير . فهناك دواع عميقة كائنة في طبيعة الحياة ذاتها ، في خفوق القلب وفي عملية التنفس يمكن اعتبارها المسؤولة عن سرعة تآثر الخيال البشري والاذن البشرية بالوزن . وفي الموسيقى تبدو هذه التأثيرات واضحة جلية ، اما في الشعر فان الاوزان هي التي تقوم بتحديد الجو التخيلي الخاص - اذا صح التعبير - الذي يقذف فيه السامع او القارئ ليستمتع الى ما يريد الشاعر ان يقوله له . ان القصيدة هي حلم ، حالة مزاجية ، منظر مكبر او مصغر لتجربة ما ، عبر عنه الشاعر بكل قدراته الموسيقية اثر الهام مفاجيء هو سر موهبته الابداعية الخاصة . لكن اوزان والت وثمان Walt Whitman الحرة الطليقة ، وثنائيات بوب Pope الصلة المحكمة ، وابيات سوينبرن Swinburne الطويلة المتراخية ، وقصائد ملتون Milton المرسل الرنانة ، هي التي تتحد - بغض النظر عن كل ما قيل - قوة اسر الشعر وسحره .

ان الجرى الاصلي للوزن ، الرمز الشامل للحلم المكبر - عنده بالاصوات المنتفاة باتم نظام ، وبالنوع الكاشفة الدقيقة ، ان ذلك هو الذي يؤلف او يقيم بناء الشعر ويوضح جوهره .

لكن ماذا نعني بحلم الشاعر؟ ان الاجابة على هذا السؤال توضح جزءا غير صغير من طبيعة الابداع الشعري ، ومن ثم تعيينا على تقييمه . ان القصيدة هي شيء يتجاوز مقاطعها المتفرقة ونغماتها والفاظها ومعانيها التي يمكن ترجمتها او شرحها . انها عملية خلق كامل او هي نظام قائم بذاته يتولد في مكان كامن وراء نطاق وهي الشاعر ، ويتكون من حلم خلد فوق صفحة من الورق .

ولنا نستطيع ان نقول الكثير عن كيفية تخمر الالف الصبور والانفعالات في ذكريات شاعر ما ، وتحولها الى ذلك الكيان الحي الذي هو القصيدة الكاملة . ولو امكنا معرفة ذلك لاستطعنا ان نفهم سر المواهب الاخرى اضافة الى موهبة الشعر . يقول وردزورث Wordsworth (ما الشعر الا انفعال استعيد عند السكينة) وبهذا القول يشير الى صفة جامعة من الصفات الاساسية لانه قصيدة رائعة . ذلك ان القصيدة او (الحلم) هي مزيج من الصور والرؤى والافكار الفت او صهرت في مكان متماسك محكم اناء حالة نفسية معينة . وفي امكاننا ان نترجم السونيت Sonnet (1) التي مطلعها :

(1) السونيت : قصيدة او مقطوعة شعرية تتألف من اربعة عشر بيتا . نظم شيكسبير اروع نماذج لها .

العالم واللفة والشاعر

— تابع المنشور على الصفحة ٩ —

وما يسمى اليه هو ايصال التجربة بكل حيويتها الى الناس ، والتجربة قد تكون حدنا مشيرا ، او وصفا نفسيا خالصا ، او افكارا مجردة . الشاعر يريد ان يمجّد بهاء الكون وفتنته ، وان ينقل التجارب التي ماناها فابقظت حواسه ، وحركت عواطفه واستنفرت افكاره . ومن اجل ذلك فانه يفضل الالفاظ التي تشير لدى القاريء او تولد عنده حالة نفسية معينة ، بدلا من ان تنقل اليه محض صور او احاسيس او افكار . والالفاظ في الشعر ليست رموزا رياضية وانما هسي محرضات عاطفية . انها لا تتكلم عن الاشياء حسب انما تحدثت الي النفس اليقظة .

وفي الواقع فان الشاعر ينهمك في ايقاظ الخيال الفاسي لا بواسطة عبودية الانغام ومعرجى الوزن حسب ، وانما بواسطة الالفاظ المحركة للعواطف ايضا . ان هذا التحريك للعواطف يعتمد ببساطة على انتقاء الشاعر للالفاظ التي تستطيع ان تحطم مفاهيمنا الاصطلاحية التجريدية لاية تجربة ، فتحوّلها الى احاسيس متفجرة في خيال طري غرض هو خيال طفل . انه يملأ شعره بالتفاصيل الحسية الملموسة ، فهو بعدد الالوان والعمور والمدافق والملامس ، وكل مظاهر ذلك العالم الذي صار شيئا روتينيا جامدا لدى الانسان البالغ العملي . ان احد مفاخر الشعر الانجليزي ، وكل شعر ، هو تلك العبثية الطفولية التجلية في الانطباعات الحسية التي ينقلها الشاعر . وان شعر هوميروس Homer وملتون Milton وكيثس Keats يقوم على هذه الانطباعات المشرقة الفورية . والشاعر — باختصاره للالفاظ الثيرة برسم مظهرا فاتنا للاشياء . ولهذا نراه يطلق على الكائنات اسماء ذات حدود حسية مثل : السواد الخمري للبحر ، الفجر ذي الاصابع الوردية وهلم جرا .

وبامكاننا — تقريبا — ان نقول : ان مهمة الشاعر هي ان ينسى اغلب الامور التي تهمننا في حياتنا اليومية . وان عليه من جهة اخرى ان يعيد اليها — كما يفعل كل موفق من الشعراء — فورة الاحاسيس وجدتها . ولكي يحقق هذا الهدف ينبغي له ان ينتخب الالفاظ السهلة الحسية الانفعالية لان الشعر الذي يترك عواطفنا خامدة لن يستطيع ان يخاطب ارواحنا بسهولة . على ان الاثارة العاطفية التي هي الشعر لن تتحقق بمجرد استعمال الكلمات العاطفية ، لان الكثير من هذه الكلمات فقدت بهاءها ورونقها بطول الاستعمال لكن الشاعر يباغتنا دوما بمفهوم جديد للكلمة بواسطة اقترانات محيطة غير متوقعة .

لقد الفت كتب حول استعمال التشبيه والاستعارة . والتشبيه والاستعارة اسلوبان يساعدان على تجديد خبراتنا ونفخ الحياة فيها ، عن طريق تحطيم الاقترانات الرتيبة للاشياء واستبدالها باقترانات طرية جديدة . لكن استعمال الاساليب المجازية لا يعني مجرد استعادة بهاء الاشياء ، وانما منحها الحياة عن طريق ربطها بعواطفنا وآمالنا ومخاوفنا ومعتقداتنا ورفباتنا . وبمثل الجاز والتشبيه تمرد الشاعر على الانطباعات اليومية الرتيبة ، فالقمر يتحول من مجرد قرص ابيض الى ملكة لليل . والشمس تصبح لها يافعا يقود عربته عبر السماء . والجمال يمسي شمعة مضيئة تنير الكون الملم ، وهكذا دواليك .

واخيرا فان اللفة جميعها مجازية لان الناس حين يعبرون بالكلام عن تجاربهم او خبراتهم العلمية ، لا يفعلون ذلك الا باساليب شديدة الانواء ، لكن الشعر بانتقائه للالفاظ الحسية المفعمة بالحيوية ، ويربطه بين انطباعاتنا ومشاعرنا ، يصبح اقرب الى صلب الموضوع من اي سلوب تعبيري اخر . ولهذا السبب لا يمكننا ابدا ان نشرح المعنى الدقيق لاية قصيدة ، كما لا نستطيع ان نترجمها الى لغة اخرى ترجمة مضبوطة . وهل في طوفك ان تنقل احساس جلدك بلمس قمصاش

الجوخ ؟ وهل تستطيع ان تشعر غيرك بمذاق الاجاصة التي في فمك ؟! على ان الشاعر ليس طفلا . ان مشاعره مهذبة ، ومزاجه معقد ، ومن واجبه كفن ان تترجم بمهارة الانفعالات النفسية بكل واقعتها واحتدامها . وتدلنا المواضيع التي نظم فيها الشعراء : (الحياة ، الشباب ، الجمال) ، على انهم يعانون ما يعانیه سائر الناس مسن مشاعر وانفعالات ، غير ان قصائدهم في هذه المواضيع رنانة وخالدة ، لا لكون هذه المواضيع عالمية او مبتدلة ، وانما لان كلماتهم ، اشعارهم ، في كل حالة معينة ، تستطيع ان تصور مزاجا نفسيا معيناً بدقة خارقة استمع الى شيكسبير في احد سونباته :

لا ، لا تقل ابدا ،

حين تظن البعاد

قد خفف لهبي ،

اني كنت كاذبا في حبي .

فلو كان بالامكان ان افارق نفسي ،

لفارقت روعي التي تسكن بين جنبيك .

لقد شعر آلاف الرجال والنساء بهذه العاطفة نحو من يحبون ، وعجزوا عن التعبير عنها ، لكنهم يجدون في ابيات شيكسبير شعورهم العادي منقولاً بأسلوب غير عادي ، وبعبارة مفعمة بالحياة . ان قصيدة حب ، يمكنها بواقعتها المضيئة ، ان تعلمهم حقيقة عاطفتهم الخاصة . وفي عالم العواطف يمكن ان نعد الشعر احسن وسائل التعبير ، واكثرها ملائمة . فما هو ناقه ، وغير جدير باهتمام العالم او الرجل العملي بصبح امرا جوهرنا لدى الشاعر . ذلك ان الشاعر لا يهتم من الماء تركيبه بقدر ما يهتم بلاقه وبهائه . كما ان مادة الشمس لا تثيره بقدر ما تثيره البركات التي تمنحها الشمس للارض . ثم ان المثيرات في مسألة العواطف قد تكون متباينة وشديدة الاختلاف ، فقد نجدنا في صوفية بليك Blake او في مثالية شيلي Shelley او في

غزليات دون Donne او في العشق الالهي عند دانتي Dante لكن ما يدفع الى تخرم الصور والالحن في نفس الشاعر ، والذي هو بداية الخلق الشعري ، انما هو احتدام الحياة او اضطرام الشعور الذي يحاول الشاعر ان يفصح عنه وان يشاركه الآخرون في احساسه به . وفي مقال (ما الفن ؟) بعد تولستوي الاخلاص اعلى فضيلة جمالية ورغم ان تولستوي كان ينظر الى الاخلاص من الجانب الاخلاقي ، الا ان الاخلاص يعد كذلك فضيلة ، في المعنى الجمالي البحت . ذلك ان شيئا من نار ينبغي ان يلهب القصيدة ، وتتبدى مهارة الشاعر ، كلما وفق الى نقل هذا اللهب الى قواد القاريء .

ثم ان الشاعر يتحمس الاشياء والاشخاص والافكار . والافكار هي خبرات ايضا . وهذه الافكار قد يكون لها اقدامها وايدائها — على حد تعبیر النرجس — فلقد انتشى قلب وردزورث Wordsworth ورقص مع زهور النرجس . لكن الافكار يمكنها كذلك ان ترقص القلب . فلنستمع الى هذا المقطع من الشعر : —

في الليلة الماضية رأيت الأبدية

تتلا مثل خاتم عظيم ، لا حد لنوره .

وفي قصائد الشعراء المثاليين الانجليز وفي مقدمتهم لوكرتوس Lucretius نجد الافكار تفيض حياة وصورا والحنانا مثل زهرة نضرة والمعروف ان الخصومة قد نشبت منذ عهد بعيد بين الفلسفة والشعر ، بين اهتمام الفكر بتحليل الآراء والافكار ، وانشغال الشاعر بنقل العواطف والاحاسيس . وليس من حاجة للرجوع الى ما قبل افلاطون لكي نذكر سهولة استثارة الافكار واشغال النار فيها . ذلك ان الفكرة قد لا تنقل عن طريق العبارة او الصيغة المنطقية وحسب ، وانما قد توصل بواسطة اسطورة او كلام مجازي . وقد يعبر عنهما بأسلوب ذي صور حسية كما جاء في وصف افلاطون للخلود : —

(مركبة الروح في طوافها الابدي بين السماوات) ان كل شيء صغيرا كان او كبيرا ، محسوسا او مجردا يستطيع ان يحرك خيال

ان الروائي يخلق عالما ثابتا مثل العالم الذي نعيش فيه بل اكثر رسوخا . ان شخصيات رواية ديفيد كوبرفيلد David Copper Field واناكارينا Anna Karénina وتوم جونز كانت

وما تزال اقرب الى الواقع ، واشد حيوية من اولئك الاشخاص الذين تعرفهم نصف معرفة ونعني جيرانك . ثم ان هذه الشخصيات الروائية لاتعيش في عالمها الخاص حسب بل ان عالمها موجود فعلا . ذلك ان المجتمع الروسي الذي عاشت فيه انا كارينا حياتها المثالية الفاجعة قد ذهب الى الابد بعد قيام الثورة والحرب . ولكن روحية هذا المجتمع وسبل تفكير ابناء الشعب موجودة هناك . ان تولستوي في عمله لم (يمثل) فقط ، وانما (خلق) حضارة كاملة .

ان اشد ما يروقنا في القصة انها تمكنا من المشاركة بالخيال في مصائر الكائنات التي يتدعها القصصي ، دون ان نخسر نحن شيئا . اننا نتحرك مع ابطال الرواية في بلاد لم نزرها قط ، ونحس بعواطف لم نعرفها ايدا . وهذا التدخل في حياة اوسع ، واشد تنوعا مسن حياتنا يمكننا بالمقابل ان نقدر الحياة التي نعيشها نحن بصورة افضل . ان الروائي بمعنى من المعاني هو الفيلسوف الذي يهدينا سواء السبيل ، ذلك ان اي تنظيم للناس ضمن قصة انما يتضمن تفهما للقدر وفلسفة عن الدنيا ، وان اقل الروائيين تفلسفا ، يكشف عن حال الدنيا ، دنياه هو ، حين ينتقى الاحداث ويقدم بناء الظروف والايضاح في قصته . واذ نعتبر هاردي Hardy وتوماس مان Thomas Mann وانا تال فرانس فلاسفة فلا بد لنا ان نقر بان فلسفة هم اغنى واشهد تالقا من مذاهب الفلاسفة الاكاديميين . وهم يعبرون - من خلال مسلكت ابطالهم - عن تقييهم الشمول للوجود . لكنهم لا يحكهون على العالم حسب ، وانما يخلقونه . ومن المثير ان نجد في الفلسفة السائدة عالما اكمل واقرب الى الافهام من عالم الروائي ، (1) هذا الكائن التخيل الذي يطوف عقله ايدا في عالم الابدية ، ويرتحل خياله منطلقا دوما في امداد الزمان ومسافات المكان .

احسان الملائكة

بغداد

نيسان ١٩٧١

(1) المترجمة قد لا تتفق مع الكاتب في بعض آرائه .

مكتبة النوري

دمشق - تجاه البريد العام

وكيلة منشورات دار الآداب وكبرى

دور النشر اللبنانية والعربية في

القطر السوري .

الشاعر . فان كان خياله عميقا وفق - كما فعل لوكريتيوس - Lucretius الى ان يحول رؤاه عن طبائع الاشياء الى ملحمة رائعة ، تكمن عظمتها في نبل موضوعها وضخامته ، وفي عباراتها الخيالية والموسيقية والوجدانية . وصحيح ايضا ان من النادر ان يجتمع العقل الباحث الحر ، والابداع الموسيقي التخيلي لدى انسان معين في آن واحد . لكن هاتين المهيتين حين تجتمعان لدى انسان واحد تكون النتيجة قصيدة تجمع بين الانفعالية والشمول مثل الكوميديا الالهية The Divine Comedy او الفردوس المفقود Paradise Lost وفي عصرنا هذا ايضا من الممكن ان يظهر شاعر في مقدوره ان يترجم كل معتقدات الناس ، التي كونها العلم المعاصر ، الى شعر خيالي حسي شامل متعمدا ان يهز افكارهم ويحرك خيالهم في آن واحد . وليس هناك موضوع شعري في حد ذاته ، بل يوجد مواهب شعرية يمكن ان تبذل على برعمة ناعمة او تبذل على الكون الكبير . ذلك يعتمد على نوع الخبرة التخيلية لدى الشاعر .

* *

اما فن النثر فهو يقودنا الى عوالم مختلفة اخرى ، على الرغم من وجود منطقة مشتركة يصعب فيها الفصل بين الشعر والنثر . وقد اشرفنا في اول المقال الى ان النثر في صورته المتطرفة ، هو فن تكون فيه اللفة - بحد ذاتها - وسيلة عرضية ، اي ان ما يقال اهم من الاسلوب الذي يقال به . وفي هذه الحالة لا يعتبر النثر فنا عسلى الاطلاق ، بل يكون محض وسيلة للتفاهم ، جهازا لتفراقي للرمسوز العملية ، او بناء منظم من الصيغ الموجزة . ومعنى ذلك انه علم بحث

اما الشكل الشعري للنثر فمن الصعب ان نحدد بالضبط الفرق بينه وبين اخيه الفن ، ذلك ان النثر له عناصره اللغوية والموسيقية الخاصة ، التي لا يفوت اي كاتب موهوب او قارئ مثقوب ان يلاحظها والكاتب الموهوب يستخدم مثل الفنان ايضا تنافم الاصوات الساكنة والمتحركة ، كما ان للنثر ايقاعاته على الرغم من كونه اكثر حرية وادق من الشعر . والحق اننا نستطيع ان نعد النثر ضربا من الشعر الاوسع اتقا والاشد انطلاقا . وهناك كاتب مثل باتر Pater يقرأ لمقاطعته وعباراته ، او دي كوينسي De Quincey الذي يقرأ لاختلته واوزانه ، او رسكن Ruskin الذي يقرأ لحسناته البيانية ، ومع ذلك فان بعض النقاد لا يعدون هؤلاء في الطبقة العليا من الكتاب ، لمجرد ان اساليبهم يلغها القموض .

ان الرواية تقدم مثلا او نموذجا ممتعا رئيسا متميزا للمبادي الجمالية العامة . فالقصة شاهد اكيد على عملية الابداع الخاصة . فهي تلقي ضوءا على كل عملية التخيل . ان الخبرة بدءا من اسط ادراك للاشياء ، انما هي نوع من التخيل القصصي فنحن لا نرى الاشياء وانما نؤلفها في مخيلتنا من الحوافز الناشئة عن المادة المتصلة ، او النزوة الطارئة . ويتعبير ابعد عن المعنى المجازي ، تكون الكراسي والمناصد ، والاشجار والابنية وغير ذلك هي العمل الذي تنهك في تصويره مخيلتنا . وان تدفق الخيرات هو المجهز للمعطيات التي تؤلف منها العالم الراسخ الذي يكتنفنا . والحقيقة ان ادراكنا للعالم انما هو قصة ذات سمة بنائية . ويبدو ذلك اشد وضوحا في نظرتنا الى الناس الاخرين ، فحتى اقرب اصدقائنا انما هم قصة نسجها نحن . انهم رواية غير مترابطة الاجزاء تاتيها عن طريق الاشاعات التي نسمعها عنهم . ونحن الذين نؤلف هذه الاجزاء ، ونجمعها في فكرة تخيلية نسميها : اصدقاء !

ان الروائي يجعل من التفاصيل خلفية لروايته ومن الاحداث تاريخا متناهما ، اما الافعال والشاعر والاراء فيؤلف منها بطل الرواية .